ديزيره سقال

قافية الخلود



(٢٠٢٢)

تجاوز
TAJAWOZ

ديزيره سقال

قافية الخلود



(٢٠٢٢)

تجاوز
TAJAWOZ

(إلى روح الراحل الشاعر

محمد علي شمس الدين)

مَشَتِ الدروبُ إِلَيْكَ
حينَ تأَخَّرَتْ عنها خُطاكَ،
وهالَها رَجْعٌ يذوبُ.
قالوا: رَحَلْتَ!
فأَهْرَقَ الشِّعْرُ المحابِرَ، بَعْدُ،

وَٱرْتَعَدَ الجَنوبُ...

***

وتَغيبُ...
في أُنشودةِ الشِّعْرِ
ٱلتي عَزَفَتْ مقاطِعَها يَداكَ،
تُعيدُ حتى في الغيابِ
نشيدَكَ المنسوجَ
مِنْ عَصَبِ القلوبِ.

تُعيدُ ما صَلّاهُ شِعْرُكَ
فِي حروفِ الخَلْقِ.
تَبْتَكِرُ الحياةَ منَ الغيابِ.
تَمشي إِليكَ،
وأَنتَ فِي كلِّ الخطى
نَبْضُ الحياةِ على الترابِ؛
وتَسيرُ عَكْسَ الريحِ،
تَبْتَكِرُ الكلامَ
لِتَجْبُلَ الدنيا على رَجْعِ القَصيدَةِ.

لَمْ تَنَمْ!
لكِنَّهُمْ ناموا قُبَيْلَ الليلِ
مُنْتَظِرينَ مَنفاهُمْ لِيَغْزُوَهمْ
متى ٱمْتَدَّ الضَّبابُ على الضبابِ...
ورأَيْتَ ذاكرَةً
تُسَبِّحُ لَونَها المائِيَّ
في أُسطورةِ التكوينِ،
تَقطفُ حَبَّةَ الزيتونِ،
تَعصرُها حروفًا في كِتابِ.

ما زِلْتَ، في صَمْتٍ،
تطيرُ على حِصانِ الشِّعْرِ،
تَنشُدُ ما تُوَقِّعُهُ القصيدةُ في السَّماءْ.
ما زِلْتَ أَنتَ الفارسَ المختارَ،
فاصْنَعْ ما تَشاءْ...

***

تَنحازُ للنورِ الذي يرِثُ الأعالي
باسِطًا كالنَّسْرِ جانِحَهُ،
فَيَسْتاءُ الضِّعافْ.
تَنْحازُ للنورِ الذي رفَضَ التَّذَلُّلَ
مِثْلَ مَنْ عَفَرَ الجبينَ
وسارَ في صَفِّ الخِرافْ.

تَنْحازُ للدمِ والشهادَةِ يُزهِرانِ
متى ٱقتَضى أَنْ يَغْسِلا دَنَسَ الغُزاةِ
على حِصانِ المجْدِ
في صَمتِ البيوتِ.
وَأَنْتَ تَشهَدُ أَنَّ كلَّ العمرِ
زوبعَةٌ تُعَلّيها الكرامةُ.
يا محمَّدُ،
تَنْهَضُ الأَفراسُ حولَكَ
كي تَموتَ

وَتَزْرَعَ الدنيا ورودًا.
أَنتَ تَشْهَدُ
أَنَّ هذا المشهدَ الناريَّ أَيضًا مِنكَ
إِذْ تَتَقَمَّصُ الوجَعَ الطويلَ
وتَجْعَلُ الأحلامَ مِحْبَرَةً
تَرُدُّ دِماءَهمْ شِعرًا
فيُزْهِرُ مِنْ عَراقَتِهِ الجنوبُ.
وتقولُ: زَوْبَعَةُ الشهادةِ وَحْدَها
قَمَرٌ يذوبُ

كي يَسْقِيَ الأَرضَ التي عَطِشَتْ
وَأَدْماها الغزاةُ فجرَّحوها
غيرَ أنَّ نِبالَنا كَسَرَتْ تَعالِيَهُمْ
وآخَتْ صَوْلةَ الشمسِ التي عَلَّتْ سواعدَنا
فَلَمْ يَصِلِ الغروبُ.
هذي خطاكَ تَضِجُّ مِنْ أَلَقٍ
وتَرفُلُ في الحروفِ
تُعيدُ زينَتَها فلا يَسْتَذْكِرُ الماضي سِواها،
والصدى وجَعًا يكونُ لِصَوْلَجانِ الشِّعْرِ

في شَمَمٍ تُزَنِّرُهُ قلوبُ.
سَتَظَلَّ تَشْهَدُ، يا مُحَمَّدُ،
حَيثُما عَبَرَتْ خُطاكَ
على مَعاريجِ البطولةِ،
والصدى يَدوي هنا وهناكَ
تَحضُنُهُ الدروبُ.
هذا أَوانُ بُطولةِ الشُّهداءِ،
فَلْتُمْحَ الذنوبُ.

***

الشِّعْرُ يَنْبِضُ في خُطاكَ كأنَّهُ وَهْجٌ
ومِحبرةٌ لقافيةٍ يُدَنْدِنُها الخلودُ،
والصمتُ صَمْتُ شُموخِكَ الأَبَدِيّ،
لا راياتُهُ تَعْيا ولا الضوءُ المديدُ.
وتَسيرُ نَحْوَ الضوءِ أَفواجًا،
كثيرًا،

مِثْلَما ٱرتقَتِ النفوسُ
إِلى مَصافي الروحِ
عابرةً من الأَدنى إلى الأعلى
لِتصنَعَ خُلْدَها
وتعودَ في أَبَدِ البداياتِ التي لا تنتهي،
تَبقى حُضورًا، والنَّشيدُ
يَعلو إِلى سَمْتٍ،
فَيَقْتَرِبُ البَعيدُ —
"أنا هَهُنا باقٍ، تَقولُ،

قصيدَتي دَرَجٌ إلى الأعلى
لأبقى في ضَميرِ الأرضِ مَحْفورًا،
فَعُدْ، يا مَوْتُ، مُنْكَفِئًا،
لِتبقى في ظَلامِ قِلاعِكَ الصَّمّاءِ وَحْدَكَ
مُظْلِمًا...
لا شَيْءَ فيكَ سِواكَ،
لا أَحَدٌ يُؤانِسُ وَجْهَكَ المستَوْحِشَ العاتي،
ولا شِعْرٌ يؤاخي روحَكَ السوداءَ،
لا حرْفٌ يُلامسُ قلبَكَ المجروحَ،

لا وَلَدٌ يقولُ: "أبي"...
تُطارِدُ موكِبَ الأَحياءِ،
تَصطادُ الضَّعيفَ،
وفي الغيابِ تظَلُّ في جوعٍ
يُحيطُ بِكَ الصَّديدُ...
يا مَوْتُ،
مَهْما صُلْتَ في دُنيا الزوائِلِ،
أَوْ نَصَبْتَ فِخاخَكَ العَمياءَ تَصطادُ البَشَرْ
سَأَظَلُّ أَقوى مِنْ دُجُنَّتِكَ الرَّهيبةِ،

عائِدًا عَبرَ الزَّهَرْ...
سَأَظَلُّ أُولَدُ في القَصيدَةِ
مِثْلَ عَنقاءٍ،
وَأَرفَعُ رايتي فوقَ الزّوالِ،
كأنَّ وَجهي ليسَ وَجْهي،
بل وُجوهُ جَميعِ مَنْ كَتَبَ القَصيدَةَ
وٱسْتَقَرَّ على حُدودِ الحَرْفِ.
يا مَوْتُ، ٱنكَفِئْ...
سَتَظَلُّ تركُضُ خَلْفَ خَطْواتي

وَأبقى مُسْتَقِرًّا في القُلوبِ
كَرايَةٍ شَمّاءَ لَن تَقْوى عليها...
كُلَّما رَكَضَتْ كِلابُكَ
خَلْفَ خَطْوي هَدَّها العَجْزُ المديدُ..."

***

يأتي إلَيْكَ الموتُ
ثمَّ يَعودُ مُنْهَزِمًا،
وَيَنْبَثِقُ الخلودُ:
في كُلِّ حَرْفٍ كُنْتَ تَكتُبُهُ
خُلودُ...
في كلِّ مِحْبَرَةٍ هَرَقْتَ مِدادَها شِعرًا

خُلودُ...

يأتي إليكَ الموتُ

ثمَّ يَعودُ منكفِئًا

لِيَسمُوَ في تَساميكَ الوجودُ...

***

هذا هو الحَدُّ الأخيرُ مِنَ المدى،
فَاهْدَأْ وَنَمْ.
سَيَظَلُّ صَوْتُكَ هادِرًا
في قَلبِنا.
سيَظَلُّ وَجْهُكَ راسِمًا وَجْهَ القَصيدَةِ
في بَكارَتِها،
وَيَحْتَضِنُ الزَّمانُ حُروفَها.

أَرَحَلْتَ؟ لا!
مازالَ وَجْهُكَ
باسِمًا بينَ الحروفِ،
وَبَيْتُ ياحونَ التي كَلَّلْتَها بالشِّعْرِ
تَحضُنُ صَوْتَكَ الباقي
وَتَحْمِلُ بُنْدُقِيَّهْ.
ما زِلْتَ تَسكُنُ في القصيدَةِ نورَها الباقي،
وَأَنْتَ الأَبْجَدِيَّهْ...
(٣/ ١٠/ ٢٠٢٢)



يا مَوْتُ،

مَهْما صُلْتَ في دُنيا الزوائِلِ،

أَوْ نَصَبْتَ فِخاخَكَ العَمياءَ تَصطادُ البَشَرْ

سَأَظَلُّ أَقوى مِنْ دُجُنَّتِكَ الرَّهيبةِ،

عائِدًا عَبرَ الزَّهَرْ...

سَأَظَلُّ أُولَدُ في القَصيدَةِ مِثْلَ عَنقاءٍ،

وَأَرفَعُ رايتي فوقَ الزّوالِ،

كأنَّ وَجهي ليسَ وَجْهي،

بل وُجوهُ جَميعِ مَنْ كَتَبَ القَصيدَةَ

وٱسْتَقَرَّ على حُدودِ الحَرْفِ.